مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــ المجلد: 11 / العـدد:01 (جانفي 2023) ص 445– 463
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

تلمسان من خلال كتابات الرّحالة المغاربة – الحسن الوزان وأبو القاسم الزياني أنموذجا

Tlemcen through the writings of Moroccan travelers - Hasan al-Wazān. Ābū al- Qāsim al- Ẓaīānī as an Example

ط.د. محمد بن عدي[1]، الأستاذ الدكتور: معمر العايب [2]

مخبر الدراسات الحضارية والفكرية–جامعة تلمسان، mohammed.benaddi@univ-tlemcen.dz

مخبر الدراسات الحضارية والفكرية–جامعة تلمسان، mamar.laib@univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2022/05/31	تاريخ القبول: 2022/11/06	تاريخ النشر: 2023/01/22

الملخص: سَجّل الرّحالة المغاربة رحلاتهم التي جسّدت تجربتهم الميدانية في الحواضر المغاربيّة، من خلال تصوير واقعها المعاش. وإبراز قيمة المدن وتنوع وازدهار الحياة العامة فيها من جهة، ومن جهة أخرى إعطاء صورة جديدة تُبرز جوانب أخرى ظلّت مجهولة عند المؤرخين والرّحالة.

إنَّ حاضرة تلمسان حَظيت باهتمام واسع من طرف الرّحالة المغاربة والتي أخذت تنوعًا إنسانيًّا واسعَ النطاق، ظهر في الثقافة والآداب والعادات الاجتماعية في مزيج فريد. أسهب الرحالة في وصفها، وذكروا محاسن منشآتها العمرانية تخطيطا وتطوّرًا على مدى امتداد حضارتها. كما بيّنوا تركيبتها الاجتماعية، وتنوع تضاريسها ومناخها، ولعلّ أبرزهم الشريف حسن الوزان، وأبو القاسم الزياني، في وصف تلمسان وأوضاعها أثناء رحلتهم إليها، وبذلك عُدّت هاتين الرحلتين حسب الباحثين والمؤرخين مصدرا أساسيًا لتاريخ مدينة تلمسان ونواحيها.

الكلمات المفتاحية: الرّحالة المغاربة، حاضرة تلمسان، الفترة الحديثة، الحسن الوزان، أبو القاسم الزياني.

Abstract: Moroccan travelers recorded their movements which embodied their field experience in the Maghreb metropolises, depicting their lived reality. On the one hand, they wrote about the value of cities, the diversity and prosperity of public life within them, on the other hand to give a new image which highlights other aspects which have remained unknown to historians and travellers.

The metropolis of Tlemcen received wide attention from Moroccan travelers, who took on great human diversity, which appeared in culture, literature and social customs in a unique blend. They also showed its social structure and the diversity of its terrain and climate. Perhaps the most prominent among them are Hasan al-Wazān and Abū al-Qāsim al-Zīānī, in describing Tlemcen and its conditions during their journey. Therefore these two journeys were considered, according to scholars and historians, as a basic source of the history of the city of Tlemcen and its surroundings.

Keywords: Moroccan travelers, Tlemcen, modern period, Hasan al-Wazān. Ābū al- Qāsim al-Ẓaīānī.

المؤلف المرسل: محمد بن عدي ، **الإيميل:** mohammed.benaddi@univ-tlemcen.dz

1. مقدمة:

احتلت منطقة تلمسان أهميّة مميزة باعتبارها كانت منطقة عُبور واستراحة للرّحالة المغاربة بِشكل خاص، فإنّها كانت حَاضرة في عَديد المدوّنات والكتابات على غِرار كتاب إفريقيا "لمارمول كربخال"، ودراسة التي تركها المؤرخ مولاي بلحميسي في كتابه:" **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني"**، وأطروحة الأستاذ فاتح بلعميري حول " **الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة"**. حتى وإن لم يتناول تلمسان بشكل مباشر فإنّ دراسته أشارت إلى واقع تلمسان خلال هذه الفترة.

حَظيت تلمسان بنصيب وافر في مصنفات الرّحالة كما أسلفنا الذّكر ممّا يشكل مادة تاريخية ثمينة، تمكن الباحثين من تسليط الأضواء على أوضاع هذه المدينة العريقة وتقلبات أحوالها عبر العصور التي زارها فيها هؤلاء الرحالة، في هذا المقال نحاول التّطرق إلى تلمسان وأوضاعها من خلال ما كتبه عنها الرّحالة المغاربة ومن بينها الرحلات الذين سجّل لهم التاريخ زيارة مدينة تلمسان ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الرّحالة " أبو علي الحسن بن محمد الوزان الغرناطي " (1495–1552) المعروف بالأسد الأفريقي" صاحب كتاب "وصف افريقيا"، والرّحالة مؤرخ الدّولة العلوية أبو القاسم الزياني" (1743–1833) صاحب كتاب الموسوم بـ: " الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا".

2. تعريف الرحلة:

1.2–الرّحلة في اللغة:

إنّ الرّحلة كفعل أساسه الحركة، يُمثلها التنقل المرتبط دوما نقطة وصول يمثلها حرف الجر " إلى ". وهما الحرفان الدّالان على الحركة داخل المكان. والرّحلة كما هو مَعروف عَرفها الإنسان منذ خلق، فقد تحرك على وجه هذه الأرض، رغبة في طيب العيش، واكتشاف المجهول، وبحثًا عمّا يَضمن له البقاء. (الوافي، 1999، صفحة 23)، وجاء في لسان العرب أنّ الرّحلة مأخوذة من مادة رحل، بمعنى الأشخاص والإزعاج، وارّحلة من الإبل: البعير القوى على الأسفار والأحمال...، وارتحل البعير رحلة، سار فمضى، ثم جرى ذلك في المنطق، حتى قيل ارتحل القوم عن المكان ارتحالا..." (ابن منظور، 1990، صفحة 1609).

2.2 الرّحلة في الاصطلاح:

الرّحلة هو فن ولون أدبي ذو طابع قصصي، فيه فائدة للمؤرخ من الباحث في التّاريخ والأدب والجغرافيا وعالم الاجتماع وغيرهم، كما أنّه ضَرب من السيرة الذّاتية في مواجهة ظروف وأوضاع، وفي اكتشاف معالم وأقطار. (محمد يوسف نواب، 1996، صفحة 76) ويُسمى كذلك الأدب المكتوب من وحي الانتقال من مكان إلي

أخر، أدب الرحلة أو أدب الرحلات (de voyages littérature) بالفرنسية وأما بالإنجليزية (Travel littérature). وهو مجموعة الآثار التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه عن عادات وسلوك وأخلاق وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته، مرحلة بمرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد (مودن، 1997، صفحة 6)، كما وقد عرّفها الإمام أبو حامد الغزالي فقال: " هي نوع حركة ومخالطة، أو نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة، (الغزالي، 1998، الصفحات 220–227) حيث جعل الرّحلة عبارة عن احتكاك بالآخر بعد الجهد والتعب. (شقرون، 2016، صفحة 12).

3. التعريف بشخصية صاحبي الرحلة:

1.3 الحسن الوزان:

2.3 مولده ونشأته:

هو الحسن بن محمد الوزان الفاسي، شخصية عربية إسلامية فذة، اجتمعت لها من الصفات والخصال العلمية والإنسانية مما أدي إلى تقديرها والاهتمام بها وبآثارها ولعل في مقدمتها كما ذكرنا سالفا كتابه المعروف " وصف افريقيا "، والذي دون فيه ما شاهده وما عاينه وما قيل له عن جزء معتبر من افريقيا واصفا فيه المناطق التي حل بها والأماكن التي مر عليها أثناء رحلاته بشيء من التفصيل والتدقيق (النفاتي، 2020، صفحة 149) حتى غَدَا هذا التّأليف "وصف افريقيا" مصدرًا مهمًا من مصادر الرّحلة لإفريقيا خصوصا في القرن (10هـ/16م) فمن يكون هذا الرّحالة؟ وماهي تفاصيل رحلته وعلاقاته بحاضرة بتلمسان؟

يَنتسب الحسن بن محمد الوزان إلي قبيلة بني زيات الزناتية، التي تقع أقصي غرب بلاد غمارة من سلسلة جبال الريف المغربية بين ساحل المتوسط ومجري وادي لاو القريب من مدينة شفشاون وتطوان. (الوزان، 1983، صفحة 6)، ولقد ولد فيما يبدو بغرناطة وذلك قبل أمد قصير من سقوطها في أيدي النصارى، وإن اختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته فمنهم من يجعلها في سنة 1495م، وبعضهم يجعلها في سنة 1500م، (كراتشكوفسكي، 1963، صفحة 450)، كما هو الحال حينما سافرت أسرته من غرناطة إلى فاس، أين ترعرع وتربي الحسن الوزان وتلقى العلم هناك (سعيدوني، 1999، صفحة 290) بمدارس المدينة وبجوامعها، وخاصة جامع القرويين (النفاتي، 2020، صفحة 7) ، فأخذ العلوم اللغوية والأحكام الشرعية والفنون الأدبية، ولعلّ مكانة أسرته المرموقة كان لها دور كبير في ممارسة مهنة كاتب الماريستان بفاس، وأثناء هذه الفترة بالذّات زادت فيه غريزة حبّ الاطلاع والشغف بتسجيل الحوادث، فقد ذَكر عنه أنّه اهتم بنقل ما تضمنته شواهد القبور في مصنف أهداه لأخ السلطان الوطاسي على الأرجح محمد البرتغالي. (الوزان، 1983، صفحة 7).

إنَّ النبوغ المبكّر للحسن الوزان كان من أسبابه ملازمته لأعلام كتر من القرويين وعلى رأسهم الأمام محمد بن غازي المكناسي (الموسوعة العربية، صفحة 360) ، فمن دون شك أيضا أنّ الحسن الوزان كان مثير التّرحال في المغرب الأقصى وخارجه مند حداثة سنه، فقد صَحب رفقة عمّه في رحلة ساقته إلي تمبوكتو، وبسبب حظّه الجيّد من التعليم الذي تمتع به وتمرسّه في فنون الكتابة الدواوينية والحنكة السياسية، كلّف لمرات عديدة ببعثات داخل المغرب الأقصى وخارجه (كريم، 2006، صفحة 13) ، غير أنّ رحلته الأخيرة إلي المشرق حوالي 1515_1516 وقع في شباك أسر قراصنة إيطاليا واقتاده القرصان الصقلي "بيترو"بوقاديقليا " "Pitro–bouvadiglia إلي ليون العاشر يوحنا المديسي (León Jean Médicis) (1513_1521)، الذي عرف بحبه للعلم وشغفه بالمعرفة والموهبة، وقد قيل أنه أقر له معاشا وهو في السجن، حتى لايفكر في الهروب (سعيدوني، 1999، صفحة 293) ، وفي إيطاليا تعلّم اللغتين الإيطالية واللاتينية، كما كان يتقن الإسبانية من قبل، الأمر الذي ساعده علي ترجمة رحلاته في إفريقيا بطلب من البابا (الشيخ، 2000، صفحة 234).

اختلف المؤرخون حول مكانة وسنة وفاته فمنهم من يذكر وفاته في إيطاليا سنة 1538م، ومنهم من يرجع وفاته بتونس أو فاس سنة 1537م، (بالحميسي، 1981، صفحة 20)، وغير مستبعد أن يكون الرأي الثاني هو الأقرب إلى الصواب لعدم وجود أدلّة تثبت بقاءه في إيطاليا أواخر حياته، هذا بالنسبة للمكان أمّا فيما يخص سنة الوفاة فلعلّها مثلما ذكر صاحب كتاب الأدب الجغرافي سنة 1552م ويبقي الشك في هذا واردًا.

4. أبــو القــاســم الــزيــانــي:

1.4 مولده ونشأته:

هو أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الزياني، ينتسب إلى قبيلة زيان الصنهاجية القاطنة بنواحي فاس، ولد بفاس عام 1167هـ/ 1734م (الزياني، 2008، صفحة 19)، تلقي تعليمه بها حيث دَرس الفقه الحديث، التفسير، النحو، المنطق... على يد أساتذة فطاحل في كل من مدرستي العطارين والصهريج، مسجد الأندلس وجامع القرويين. (سعيدوني، 1999، صفحة 476) تنقل في مختلف الوظائف الساميّة، عاملا ووزيرا وسفيرا. حتى لقب بذي الوزارتين.

فأبو القاسم الزياني وزير ومؤرخ الدولة العلوية، آمازيغي الأصل، وكان يعتز بذلك على الرغم من أنّه كان من كبار موظفي الدولة، قام بأسفار كثيرة وزار مناطق عديدة مثل تركيا ومصر وسوريا وسواحل أوروبا الجنوبية، واستطاع أن يكتب خمسة عشر مصنفًا كبير الحجم، وترجع شهرته الجغرافية إلى كتابه في أدب الرحلات "الترجمانة الكبرى"، الذي جمع فيه أخبار العالم وعلومه (بالحميسي، 1981، صفحة 20).

في عهد السلطان مولاي عبد الله رافق الزياني والديه لأداء فريضة الحج، ودام هذا الغياب عامين كاملين، وطريق عودتهم كان عبر إيطاليا التي مكثوا بها قرابة أربعة أشهر، في انتظار المركب الذي لم يأتي، الأمر الذي اضطرهم إلى إكمال رحلة العودة إلى المغرب عن طريق مرسيليا وبرشلونة برا، حيث دخلوا المغرب الأقصى. (بالحميسي، 1981، صفحة 20) ، وفي بداية العقد الثالث من عمره، انتقل إلى البلاط الملكي ليعيّن كاتبا بالقصر، فأظهر إتقانه للعمل وتقنياته فيه، الأمر الذي قرّبه من السلطان مولاي محمد بن عبد الله 1757–1790م، فأسندت له عدّة مهام (سعيدوني، 1999، صفحة 476) ، وعين سفيرا بأسطمبول أيام عبد الحميد 1774–1789م، لكن لمدة لم تتجاوز الثلاثة أشهر، ثم عزل أيام مولاي اليزيد (الناصري، 1956، صفحة 56) بن محمد 1790–1792م، لكنه عاد مرة أخرى إلي البلاط الملكي في فترة حكم مولاي سليمان (الزياني أ.، 2003، الصفحات 6–12) بن محمد 1792–1822م (بالحميسي، 1981، صفحة 21)، بعد مدة قاربت الإحدى عشر سنة أو أكثر من الخدمة في البلاط الملكي والمهمات الدبلوماسية.

2.4 شيوخه:

على غرار علماء هذه الفترة، تلقى الزياني تعليما محافظا، يتّخذ من العلوم الشرعية وعلوم الآلة، منهجا أساسيا في الدّراسة، فنال حظّه من الفقه والحديث، والتفسير والنحو والمنطق، بجامع القرويين بفاس، على أيدي شيوخ أجلاء، نذكر منهم: أبوه أحمد بن طاهر الشرقي، ومحمد بن الطيب القادري (بروفنصال، 1977، صفحة 114) ، وعبد القادر أبو خريص، وعمر الفاسي، والشيخ التاودي ابن سودة، ومحمد بن الحسن بناني، أمّا ما نبّهه للعناية بعلم التاريخ والجغرافيا والأنساب، فكناش لجده النسابة على بن إبراهيم الزياني، الذي كان يشتغل بالإمامة في عهد المولى إسماعيل، فضلا عن كناشات أخرى للعائلة، (بلعمري، 2017، الصفحات 56–57).

3.4 مصنفاته:

تفرغ الزياني للكتابة والتأليف بما حَمله من تجارب وخبرات ورحلات ساعدته في الأخير على التدوين والتسجيل، وفي هذا الشأن ذكر أنّ للزيّاني مؤلفات عدّة قاربت العشرين تأليفا، لكن الأستاذ ناصر الدين سعيدوني يُحدّد له ثلاثة كتب رئيسية وهي (بالحميسي، 1981، صفحة 11):

أ–الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب.

ب–البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف (الروضة السليمانية).

ج–الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا.

إضافة إلى تآليف أخرى خلّفها أبو القاسم الزياني، عَكست اهتماماته العلميّة، وثقافته الموسوعيّة، نذكر منها:

– بغية الناظر والسامع والهيكل الجامع لما في التواريخ الجوامع.

– عقد الجمان في شمائل السلطان سيدنا ومولانا عبد الرحمن.

– تُحفة الإخوان والأولياء في صناعة السيمياء.

– جمهرة التيجان وفهرس الياقوت واللؤلؤ والمرجان في أشياخ أمير المؤمنين مولانا سليمان.

– جمهرة من حكم بفاس وقضى في الدّولة العلويّة وجرى به القضاء.

– تُحفة الحادي المغرب في رفع نسب المغرب. (الزياني أ.، 2003، الصفحات 14–17).

4.4 وفاته:

تُوفي العالم الرّحالة المؤرخ الأديب، الكاتب الجماع المعمر، وزير الدولة المغربية وسفيرها، أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني بفاس، عصر يوم الأحد 4 رجب 1249هـ/17نوفمبر 1833م، عن عمر ناهز مائة عام (السملالي، 1993، صفحة 391) ، ولقد دفن رحمة الله عليه بأمر من السلطان عبد الرحمن في داخل الزّاويّة النّاصريّة بحي السياح في مديمة فاس، تاركا وراءه عددا من المؤلفات والكتب كمؤرخ خُلّد اسمه لحد السّاعة (الزياني أ.، 2003، صفحة 10).

5. تلمسان من خلال كتاب وصف افريقيا:

1.5 موجز مضمون كتاب وصف إفريقيا:

قد يَخطر لمحب الارتحال والمغامرات، أن يرتحل بعيدا عن وطنه لمدة تستغرق شهورا وأعوامًا، يسجّل خلالها ما يجلب انتباهه وما يعجبه أو يخالف ما تعوده (سعيدوني، 1999، صفحة 294) ، هذا الكتاب ليس الإنتاج الوحيد للمؤلف، لكنّه هو الذي كان نال شهرة واسعة، ويحيط الغموض بالظروف التي ألف فيها هذا الكتاب، والطريقة التي اتبعها الكاتب في إثبات معلوماته، ذلك أنّ هذا الكتاب ظهر لأول مرّة حين عثر الإيطالي Ramusio وهو من أسرة مؤسّسة Hakluyt في عام 1550م، على النسخة الخطية الإيطالية للكتاب ونشرها في ثلاث مجلدات، مع وضع مقدّمة لها في مجموعة من الرحلات (محمد، 1959، صفحة 167).

ومنذ ظهور هذه الطبعة الإيطالية للكتاب، بدأ العالم الغربي يدرك أهميّة الكتاب، إذ ترجم إلى عدّة لغات، ففي سنة 1956م قام المترجم jean Temporal بترجمة الكتاب إلى الفرنسية وطبعه في مدينة ليون وإهدائه لولي عهد فرنسا في ذلك الوقت.

كما ألّف الحسن بن محمد الوزان الفاسي كتابه "وصف إفريقيا" وقسّمه إلى تسعة أقسام، والملاحظ في هاته الأقسام أنها لا تتوزّع بالتّساوي من حيث عدد الصفحات.

في **القسم الأول** تحدث المؤلف عن إفريقيا وسكانها بصورة عامة، وخصّص **الثاني** في كتابه للحديث عن مملكة مراكش، إذ تحدّث عن مساحتها وتأسيسها وحوانيتها ومخازن الكتب بها، وعن منار الكتبية العظيمة، أمّا **القسم الثالث** فخصّص ليون الإفريقي شطرا منه للحديث عن مملكة فاس، إذ تحدث عن تشييدها ووصف منازلها وجامع القرويين منارتها، وكذالك مدارسها ومستشفياتها... وفيما تعلّق **بالقسم الرابع** فأفرده الحسن الوزان الفاسي عن مملكة تلمسان، التي سوف يأتي الحديث عنها من خلال عناصر هذه الدّراسة، كما تطرّق في **القسم الخامس** من كتابه إلى مملكة بجاية بتونس، حيث وصف مدنها المشتملة على بونة؛ وقرطاج؛ وقسنطينة؛ وتونس، والمهديّة؛ والقيروان؛ وصفاقس... وتحدّث عن ظروف تشييد هذه المدن، ومآثرها وأهم الأعمال التي كانت تقوم بها ساكنتها، ومختلف عاداتهم وتقاليدهم، في **القسم السادس** تحدث فيه الحسن الوزان عن طرابلس؛ ولبدة؛ وفزان؛ والصحراء الليبيّة الثي قسّمها إلى خمسة أقسام حسب القبائل التي تغلب على كل قسم منها، أمّا **القسم السّابع** فأفرده الرّحالة للحديث عن أرض الزنوج (ممالك السودان الغربي)، التي حدّدها في خمس عشرة مملكة، أمّا **القسم الثامن** من هذا الكتاب فقد تحدث فيه الوزان عن مصر التي زارها كما يقول ثلاث مرات في طريقه للقسطنطنية، إذ عمل على وصف مدنها وتاريخها، كما أسهب في حديثه عن مدينة القاهرة، ليتحدث في **القسم التاسع** والأخير من الكتاب عن الأنهار الرئيسية والمخلوقات الغريبة والنباتات والمعادن الإفريقية (سعيدوني، 1999، صفحة 294) .

ما يهمنا في هذا الموضوع هو تحدث الوزان الفاسي المعروف عندهم بالأسد الإفريقي، حيث مكّنه السّفر والتنقل من كتابة ما شاهده وما سمعه وما استنتجه، ودوّن الكل في "وصف افريقيا"، وهو الكتاب الذي اشتهر به وبنسخته الإيطالية، التي حملت عنوان "وصف افريقيا" والأمور الهامة بها. (الوزان، 1983).

« **Description dell Africa et dell Cosi Mal Abriliche Quivi Soxo** »

لقد جاء كتاب وصف افريقيا في عرض جمع بين كتب الرحلات والمسالك، ومزج فيه صاحبه بين ما شاهده وما سمع ومن أخد منهم، من أمثال ابن الرقيق، الذين رسخوا في ذاكرته رغم إقامته الطويلة في أوروبا (إيطاليا) وانقطاعه عن البيئة الإسلامية (سعيدوني، 1999، صفحة 294).

من المرجح أن الرحالة في كتابه" وصف إفريقيا" كان يدون المعلومات التي يجمعها في عين المكان ويشتمل على ثلاث كتب رئيسية موزعة على تسعة أقسام وكان الحديث عن مملكة تلمسان كما أسماها في القسم الرابع.

ويَذكر الوزان بعض المصادر التي استقى منها معلوماته كالمسعودي، البكري، الإدريسي وقيمة الكتاب هي ملاحظته الشخصية محتفظا دائما بروحه العربية (Massignon,1906, p63).

قبل أن يلج الحسن الوزان في الكلام عن تلمسان ووصفها وتعريفها كمدينة أولا، حيث بدأ في ذكر الإطار الطبيعي والتاريخي للمدينة قائلا: "**يَحدّ مملكة تلمسان واد زا ونهر ملوية غربا، الواد الكبير (الصمام) وصحراء نوميديا جنوبا، في الشمال الغربي لمدينة تلمسان توجد مرتفع ترارة (الواليش، 1994، صفحة 40) (جبال فلاوسن) ،وكانت هذه المملكة تحمل في القديم اسم قيصرية، عندما كانت خاضعة لسيطرة الرومان**" .

حيث يُشير أنَ قُربها من صحراء نوميديا هو السبب الذي جعل المملكة تتضرر من تعسَفات الأعراب ثم تحدث عن طبوغرافية ومناخ هذه المدينة قائلا: "يكون معظم مملكة تلمسان أقاليم جافة قاحلة لا سيما في جزئها الجنوبي لكن السهول القريبة من الساحل منتجة جدا نظرا لخصبتها والجهة المجاورة لتلمسان كلها سهل مع بعض المفازات حقا إنه توجد غربا عدة جبال قرب الشاطئ (الوزان، 1983، الصفحة 10).

ثم ذهب بعد ذلك وذكر عدّة مدن منها ندرومة (الواليش، 1994، صفحة 51)، التي قال فيها: " **أسّس هذه المدينة الرومان قديما عندما كانوا يحكمون المنطقة وبنوها على بقعة واسعة في سهل بعيدة بنحو ميلين من الجبل واثني عشر ميلا من البحر المتوسط، ويمر قربها نهر قليل الأهمية**" ، وقال أيضا:" **إنها عاصمة صغيرة شبه مستقلة في المجال الحرفي تابعة تجاريا لتلمسان**" (الحجوي، 1935، صفحة 2).

ذكر أيضا مدينة تبحريت قال فيها:" **مدينة صغيرة بناها الأفارق علي ساحل البحر المتوسط في رأس صخرة بعيدة بنحو اثني عشر ميلا عن ندرومة، ويقربها جبال عالية وعرة لكنها كثيرة السكان، وأهلها نساجون وحرفيون ومنتجون**" (الوزان، 1983، صفحة 14).

ورد كذلك في كتابه مدينة هنين وفيها قال: " **هنين مدينة قديمة بناها الأفارقة، وهي أنيقة صينة للغاية، لها ميناء صغير محروس ببرجين كل واحد منهما من جهة (الوزان، 1983، صفحة 15) ...وتأتي إلى هذا الميناء سنويا سفن شراعية من البندقية تحقق أرباحا جسيمة مع تجار تلمسان...**"

وذكر أيضا أرشكول قائلا:" **أرشكول مدينة قديمة بناها الأفارقة على صخرة يحيط بها البحر من كل جانب كانت مدينة في غاية العمران والحضارة**". (الوزان، 1983، صفحة 16)

ليصل إلى تلمسان بعنوان كبير "**تلمسان المدينة الكبرى** " **قائلا فيها مدينة كبيرة، وهي عاصمة المملكة لم يذكر تاريخ مؤسسها، وخصوصا بعد طرد جنود المنصور بني عامر من المنطقة، كما ذكر كذلك تضرر تلمسان من جراء الحصار المضروب عليها من طرف أبي يعقوب يوسف** (الوزان، 1983، صفحة 19) ثاني ملوك بني مرين الذي بني مدينة أخرى شرق مدينة تلمسان تسمى المنصورة، إلى أن قال: "...**وجميع الصنائع والتجارات بتلمسان موزعة علي مختلف الساحات والأزقة، وتوجد بتلمسان مساجد عتيقة جميلة ، بها أئمة وخطباء وخمس**

مدارس حسنة، جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية، وبها كذلك عدة حمامات متفاوتة ...وفيها فنادق على النمط الافريقي"

وفي المدينة عدّة سقايات لكن العيون توجد خارج المدينة، وفي خارجها ممتلكات هائلة فيها دور جميلة للغاية ينعم بها سكانها في الصيف.

وعن منعة المدينة وحصانتها فيبدوا أنها كانت على قدر من ذلك حيث يقول: "**والأسوار في غاية الارتفاع والقوة فتحت فيها خمسة أبواب واسعة جدا مصاريعها مصفحة بالحديد وقد أقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها موظفون وحرّاس ومكاسون والقصر الملكي الواقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير على شكل قلعة**". (الوزان،1983، الصفحة 29).

وإن دلّت هذه الأبواب والأسوار على شيء فهو اهتمام أهلها بحمايتها من أي خطر ينتابها والملاحظ أن الوزان لم يذكر لنا أسماء هذه الأبواب ولا حتى عن مواقيت فتحها وإغلاقها.

يُوجد بها قضاة وعدد كبير من العدول يتدخلون في الدعاوي وكثير من الأساتذة والطلبة في مختلف المواد سواء في الشريعة أو العلوم الطبيعية وتتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بكيفية منتظمة.

ومن خلال هذا يبدوا أنّ مُعظم حواضر المملكة من حيث العمران هي من تشييد الأفارقة أمّا عن المنشآت الأخرى فيورد لنا أبو علي بن محمد الوزان بوصف عن تلمسان أظهر من خلالها تمايزاً وانفراداً على أقرانه في الزمان والمكان حينما كان ماراً عليها متوجهاً للأستانة بأمر سلطاني، وفي إطار مهمّة دبلوماسيّة على ما يظهر ليرز في هذا الصدد وهو يسوق خبرها مخصصا المؤسسات العلمية وعمارتها وحماماتها حيّزاً معتبرا من حديثه عمّا نُسجت عليه في هذا الضرب التاريخي بقوله: "**توجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة بها أئمة وخطباء وخمس مدارس حسنة جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس وبها عدة حمامات متفاوتة... وفيها فنادق على النمط الإفريقي**". (الوزان، 1983، الصفحة 19-20).

ويُضيف عن الحياة العلمية والفكرية في تلمسان، ماذكره عن إرادات المؤسسات الثقافية ومصادرها، ماكان في انطباعاته المفصلة عنها، وتراجعها في أيّام تواجده فيها، والذي أدرجه في خبرها، قيما لا يخالفه فيه أحد، عندما قال في ذلك: "**... كان لهذه المملكة مردودا يبلغ ثلاثمائة ألف وحتى أربعمائة ألف دينار طوال العديد من السنين عندما كانت وهران تابعة لهم، لكن نحو نصف هذا المبلغ كان يُتفق على الأعراب وحراس المملكة، والباقي**

لأجور الجند والقادة وكبار موظفي الحاشية..." (الوزان، 1983، الصفحة 23.)إضافة إلى مصالحها ووظائفها سواء المهمة منها أو الأقل أهمية.

كما وذهب بعدها يَصف فيما يتعلق بمراتب رجال القلم وتموقعهم المميز داخل البلاط السلطاني، عندما اقتنصوا الدرجة الثانيّة في السلم الإداري بعد الملك نفسه، فقال: "...**والشخصية الثانية هو كبير الكتّاب الذي يحرر الرسائل والأجوبة باسم الملك...**"**(الوزان، 1983، الصفحة، 21).**

أمّا عن الكثافة السكانية فيذكر لنا الّرحالة أنه: "لا يسكنها إلا القليل من الناس ويمكن إسناد ذلك إلى التخريب الذي كانت تتعرض له المدينة وقتل سكانها، ويضيف حديثه عن الفئات الاجتماعية قائلا ": **وينقسم جميع أهل تلمسان إلى أربع طبقات، الصناع، والتجار، والطلبة والجنود**" (بن خروف، 2008، الصفحات 132-134).

وقد فصل في كل طبقة من حيث الحالة الاجتماعية فالوزان لم يكن غافلا عن ثقافة المجتمع التلمساني في لباسه، لما أضاء بالكتابة ما سار عليه طلبة العلم في معتقداتهم وميولاتهم الاجتماعية والثقافية معطيا بذلك صورة حقيقية عن هذا الجانب تَلخَّصَ في خاصية رحلته ضمن الرحلات الإثنوغرافية، المرتكزة على المشاهد المباشرة في قوله: "... **ويلبس الطلبة ثياباً مناسبة لوضعيتهم، فالجبلي يلبس لباس أهل الجبل، والأعرابي لباس الأعراب، أمّا الأساتذة والقضاة والأئمة وغيرهم من الموظفين فلباسهم أحسن**" (الوزان،1983، الصفحة، 21).

ليضيف بشكل وجيز في حديثه عن الولي الصالح أبي مدين شعيب الغوث (ت594هـ/1193م)، دفين العباد عن هيبته ومهابته، عن وقاره ورفعته، وماحظي به هذا الرجل الصالح من قبل سكان المدينة ونواحيها بقوله عنه: "... **وبها دفين ولي كبير، ذو صيت شهير، يوجد ضريحه ف مسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلم من عدة درجات، وبعظم أهل تلمسان والبلاد المجاورة لها هذا الولي كثيرا، ويستغيثون به ويتصدقون عنه كثيرا لوجه الله، ويسمى سيدي بومدين وهناك أيضا مدرسة جميلة جدا**..."(الوزان، 1983، الصفحة 23).

أمّا من الناحية العمرانية فقد فصل في حواضر هذه المملكة وذكر قصورها وزمن بنائها وما يحيط بها رغم أنه يقول: "**لا يوجد بهذه المملكة إلا القليل من المدن والقصور**" (الوزان، 1983، الصفحة10).

فعن قصر تمزيزدكت يقول أنّه "قصر واقع في الحد بين هذا القفر وبلاد تلمسان يمتد قديما على صخرة وكان ملوك تلمسان يجعلونه في حالة تأهب دفاعي" (الوزان، 1983، الصفحة 10). ثمّ تحدث عن قصر إيسلي الذي شيده الأفارقة ولكن أسواره دمرت أثناء الحروب ومدينة وجدة التي بناها الأفارقة في سهل فسيح كما تعرض إلى مدينة ندرومة الرومانية بالإضافة إلى تبحريب وهنين الأنيقة كما يصفها بإفريقيتي المبني.

دُونَ أن يستثني مدينة العباد (الوزان، 1983، صفحة 24)، وتافسرة وتسلة داخل المدينة، ليأتي في النهاية، إلى ذكر جبال مملكة تلمسان كجبل بني يزناسن ؛ وجبل مطغرة ؛ وجبل ولهاصة ؛ وجبل أغبال ؛ وجبل بني ورنيد؛ وجبل مغراوة؛ وجبل بني بوسعيد (الوزان، 1983، الصفحات 43–45).

وبالنسبة للحياة التجارية فيذكر أنه جميع الصنائع والتجارات بها كانت موزعة على مختلف الساحات والأزقة لكنه يورد كذلك "أن دور تلمسان أقل قيمة بكثير من دور فاس"وعلى حد ذكره فالمدينة كانت تشهد تجارة رائجة رغم انعدام الأمن حيث يقول: "**قلما توجد في البلاد سبل آمنة ومع ذلك فالسلع تروج بكثرة في مملكة تلمسان لقربها من نوميديا ولأنها تشكل مرحلة في الطريق المؤدية إلى بلاد السودان**" ويمكن إرجاع ذلك إلى الموقع الذي تحتله المدينة والذي رسم عدة طرق أمام القوافل التجارية بالإضافة إلى تنوع ممتلكاتها التي تزخر بها سهولها الساحلية ويقول في هذا "في خارج تلمسان ممتلكات هائلة فيها دور جميلة للغاية ينعم المدينون بسكناها في الصيف حيث الكروم المفروشة الممتازة تنتج أعنابا من كل لون طيبة المضاق وأنواع الكرز الكثيرة التي لم أر لها مثيل في جهة أخرى، والتين الشديد الحلاوة وهو أسود غليظ طويل يجفف ليأكل في الشتاء والخوخ والجوز واللوز والبطيخ والخيار وغيرها من الفواكه المختلفة" (الوزان، 1983، الصفحات 19–20).

وتَحدّث عن ظهور عروج وتدخلاته في شؤون الجزائر 1516م وقتله سنة 1518م، وانتقال الأمر بعده إلى أخيه خير الدّين، الذي وضع نفسه والمناطق التي حوزته تحت نفوذ السلطان العثماني سليم، وضرب السّكة باسمه في الجزائر وبذلك دخلت البلاد في مرحلة جديدة من تاريخها.

وخلاصة القول:

إنّ الحسن الوزان وفي عدّة صفحات من رحلته قدم لنا لوحة فيها وصف دقيق وصحيح بعيد عن التكلف وما يمكن ملاحظته في الوصف غياب التواريخ فهو لم يقدم أي تاريخ لأي حادثة رغم أنه كان كثير الاهتمام بتاريخ هذه المنطقة الذي استعرضه في بداية حديثة عن هذه المملكة.

كما تَلمس من خلال رحلته نُفوره الشديد من الأعراب والذي يمكن تفسيره بنشأته المتحضرة في المجتمع الإيطالي بعد وقوعه أسيرا.

6. تلمسان من خلال كتاب الترجمانة الكبرى لأبو القاسم الزياني:

1.6 ظروف كتابتها:

لابدّ للرّحلة من تاريخ ظاهر أو مقدر، وتاريخ صياغتها صياغة رحلية، وهذا ما ينطبق على رحلة أبي القاسم الزياني أيضا، فقد قيّد رحلاته الثلاث، حسب صياغتها التي وصلتنا، من الترجمانة الكبرى، بعد سبع

وعشرين سنة من رحلته الثالثة والأخيرة عام 1224هـ، باعتبارها زبدة تجاربه ومعارفه، أي جزء لا يتجزأ من تاريخه الشخصي الحافل بالأحداث، وعن هذا الشأن يقول أبو القاسم الزياني: " **وإذا تدرجت من أعلى المراقي، وقعت على دفاتري وأوراقي فاعتكفت في كسر بيتي، أيّام أدهشتني على ما يزيل قنطي، ويدفع وحشتي**" (الزياني أ.، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، 1991، صفحة 28).

ويَرى الأستاذ نزار التجديتي، أنّ أبا القاسم الزياني لم ينجح في تحرير نص أدبي من عيار الترجمانة، ومن ثم الكتابة لأول مرة بصوت – ضمير المتكلم– عن خوالج الذات الحاضرة، إلاّ بعدما نجح أمام الملإ في التأهيل للكتابة السلطانية، بإجماع الأدباء والكتاب، والمقصود هنا كتابي الزياني في التاريخ والترجمة، الترجمان والبستان الظريف، واللذان صارا من المصنفات المجازة، والدفاتر المقررة في أدبيات المخزن (التجديتي، 2009، صفحة 41)، ويضاف إلى هذين العاملين، ازدهار فن الرحلات في هذا العهد، عبر إرسال السفراء إلى الشرق الأوسط، كتركيا والحجاز، وحتى إلى بعض الدول الغربية كإسبانيا وفرنسا ، وتدوين معظم هؤلاء السفراء المنتدبين رحلاتهم بأسلوب أدبي فائق.

2.6 موضوع كتابة الترجمانة الكبرى:

تَروي الترجمانة أخبار رحلات أبي القاسم الزياني الثلاث، على عادة النحاة، في الجمع بين الأخوات، والتي زار خلالها مصر وتركيا، والشام والحجاز، وغيرها من البلدان، حيث وصفها على تقسيم الأقاليم السبعة من المغرب إلى أقصى المشرق بالصين، ومن أقصى السودان في الجنوب إلى أقصى بلاد الصقالبة في الشمال (الزياني أ.، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، 1991، صفحة 36) ، وقد استهلها بالحديث عن انتقال عائلته إلى فاس، وولادته بها، فذكر شيوخه وتعليمه، ثم خبر رحلته الأولى رفقة أبيه إلى الحجاز، والعودة إلى المغرب 1171هـ، والالتحاق بالعمل المخزني، إلى أن تعينت الرحلة الثالثة، في سفارة إلى اسطنبول، لسلطان العثمانيين عبد الحميد العثماني عام 1200هـ، فما جرى له بعد العودة مع المولى اليزيد إثر وفاة المولى محمد ابن عبد الله. ثم خبر خروجه إلى مدينة وجدة (مجهول، 1985) واليا عليها بالإكراه، سنة 1206هـ/ 1792م، ومعه ركب التجار، والتوجه إلى وهران، ومنها إلى تلمسان بعد أن اعترض طريقه قطاع الطرق، فأقام بها سنة ونصف السنة منشغلا بالمطالعة والتقييد والتأليف (بالحميسي، 1981، الصفحات 20–21)، إلى أن أزمع القيام برحلة ثالثة لزيارة البقاع المقدسة، وخلافا للرحلتين السابقتين، يذكر الزياني تفاصيل هذه الرحلة، بدقّة أكبر، إذ الرحلة الأولى كانت رحلة أبيه، والثانية كانت تمثيلا للدولة المغربية، لدى مثيلتها العثمانية، أما هاته فرحلته الخاصة به.

وعليه، نجد الزياني خلال هذه الرحلات يصف كيفية خروج ركب الحج، والمسالك التي يقطعها، ومنازل الحجاز، وما تعرض له الركب أثناء الطريق، وقد زار خلال هذه الرحلة مصر وتركيا، وبلاد الشام والعراق، أنطاكية وفلسطين، وخلالها حج مرتين قبل أن يعود إلى تلمسان ومنها إلى فاس (الزياني أ.، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، 1991، الصفحات 140–145)، وخلال هذه الرحلات، كان الزياني يخبرنا عمن لقي من الأمراء والأعيان، والأئمة الأعلام، نذكر منهم: سلطان العثمانيين عبد الحميد الأول، وكمال الدين باشا؛ وسليمان أفندي؛ والوزير يوسف باشا؛ والمؤرخ عبد الرحمان الجبريتي؛ والفقيه خير الدين عزماتي؛ والشيخ سليمان الفيومي؛ والشيخ كمال أفندي؛ والطبيب المؤرخ المصري إسماعيل العباسي؛ حفيد آخر الخلفاء العباسيين (بن عثمان المكناسي، 1965، صفحة 58).

ولم يقتصر الزياني في ترجمانته على أخبار رحلاته فقط، بل حرص على الجمع بين المتعة والمنفعة، دون الفصل بينهما، لذا نجده يعطينا تفاصيل عن البلدان التي مر بها، من حيث تاريخها، وجغرافيتها، ومعالم عمرانها، وعادات أهلها، إضافة إلى أخبار مناطق أخرى لم يزرها، كاليمن والصين، وأوربا وآسيا، كما يعطينا صورة عن العالم – كما يتصوره–بما فيه من بحار وقفار، وجزر وجبال، وعيون وآبار، ومعادن وأحجار وحيوانات، مقسما إياه – على طريقة القدماء – إلى سبعة أقاليم. وكل ذلك بأسلوب يتراوح بين الرقي والبساطة، ويغلب عليه السرد والوصف (الزياني أ.، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، 1991، صفحة 288).

وعن متعة الأدب، نجد الزياني يضمن ترجمانته أشعار كثيرة مختلفة المضامين، ومتفاوتة القيمة الفنية، إمّا من إبداعه، أو من إبداع غيره من الماضين، أو المعاصرين الذين ينشدهم وينشدونه. فالرحالة وهو يحلي رحلته بالشعر، إنما يفعل ذلك تحت تأثير المكانة العالية للشعر في الثقافة العربية. وكأني به وهو يورد هذه الأشعار، بين الفينة والأخرى، يسعى إلى إمتاع القارئ بهذا الخطاب الشعري الجميل، وإلى رفع قيمة رحلته باحتوائها عددا وافرا من الأشعار التي توظف في سياقات مختلفة، وهذه الأشعار في الترجمانة لا تخرج في مجملها عن ست أغراض وهي: المديح النبوي؛ ومدح الولاة؛ والإخوانيات؛ والهجاء؛ والزهد والشكوى؛ والوصف (عبد الرزاق الموافي، 1995، صفحة 113).

وبناء على ذلك يأتي السؤال الواجب ذكره في هذا المقام هو ما علاقة أبو القاسم الزياني بتلمسان؟

أنهي الزياني كتابه "**الترجمانة الكبرى**" في 20 جوان 1818 وعَنْوَنَهَا بعنوان طويل جذا وهو" **الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم برا وبحرا وما تخللها من الأمصار والمدن والقرى والقفاز والبحر والجبال والأنهار**

والعيون والمعادن والآبار وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات وما يزيد ذلك من تفسير والآثار ونوازل الفقه ولغة العرب وشواهد الأشعار".

وهي تجمع رحلاته الثلاثة خارج المغرب الأقصى، رحلته إلى البقاع المقدسة 1755–1757 ، والرحلة الثانية إلى أسطمبول 1785، والثالثة إلى الحجاز 1791، كما أسلفنا الذكر (الشيخ، 2000، صفحة 235) ، وهذه الأخيرة التي هي محور اهتمامنا بما تحمله من أخبار عن مدينة تلمسان يقول في هذا " **ولما دخلت مدينة تلمسان ، التي لا يعرفني بها إنسان، خال الكيس من النقير والقطمير**" لأن الزياني أقام فيها ما يقارب السنة ونصف السنة، مشتغلا بالمطالعة والتقييد والتأليف واطلع هناك على غرائب كتب التاريخ التي تعد اليوم في حكم المفقود، قائلا في هذا الصدد: " **وأقمت بها سنة ونصفها شربت زلالها واستنشقت عرفها** ". (الزياني أ.، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، 1991، الصفحات 142–148). في هذه الأثناء وصف أبو القاسم الزياني شيخا تلمسانيّا لمحه، عندما قدم تلمسان ودخل جامعها الكبير، وحضر مجلس هذا الشيخ الذي أبدى على حسب الزياني يتغنى بمظاهره وغير مراع لحالته العلميّة بقوله"..**وكان يمر بي رجل بهي المنظر، نظيف الثياب صقيل المغفر، يلحضني شرزا، ويميل عني كبرا، يطرق البادي ولا يسلم، ويبخل عن التّكلم ويرى أنّه من الطبقة العليا ...أحسبته من جهابذة الأعلام ...فقصد الكرسي يميس ويتبختر، وصعد على أدراجه ينتشر، فدنوت منه شغفا بعادتي...فلم أجد في سفرته ثمرا منه التقط، ولا في روضته زهرا بقطافه أغتبط**" (الزياني أ.، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، 1991، الصفحات142–143)..

ولما كان الزياني منصرفا لتتبع هذه الشخصية، فقد اعتنى بالبحث عنه وحاول الوقوف على منصبه وعُلو شأنه، فأضاف في ناحية أخرى من قوله عنه"...**ولما سألت عن حاله ومنصبه، المغتر بجماله، قيل لي أنّه قاضي المواريث من محلى الخبائث، فحينئذ قطعت نظري عن الأنس...**،" وقصدت قرية أبي مدين بالعباد ...وقلت مخاطبا لهذا المتكبر الذي هو بقسم الترائك يفتخر:

يا من تكبّر فوق ماينا سبه وظنّ أنّ خدمته الشميس والقمر

وتاه عجبا وظنّ عجبا وظنّ ببشاشته وازور من قوة تخاله الحجر (الزياني أ.، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، 1991، صفحة 140).

لقد ضمّ كتاب الرّحلة ضمن موضوعاته الأخرى عروضا مهمة عن بعض المناظرات والمباحثات التي كانت يبنه وبين علماء وفقهاء وطلبة تلمسان الذين التقى بهم، ذاكرا فيه: " **ولمّا انتقلت من تلمسان ونزلت بجوار أبي مدين بالعباد، واخترت العزلة عن العباد، انهال علي طلبة البلاد من ذلك المصر، وفقهاء ذلك العصر ..وقصدونا**

للأنس والمذاكرة، والمسامرة والمحاضرة و، واتحفونا بما عندهم من كتب الأخبار ... فأتحفني الفقيه الأديب السميذع الأريب خطيب مسجد أبي مدين بالعباد بتاريخ الإمام المؤرخ أحمد بن يحي البلاذري في ستة أسفار..." (بالحميسي، 1981، صفحة 22) إلى أن قال: " **وطالعت بها تاريخ سليمان بن إسحاق المطماطي، وتاريخ هاني بن يصدور القوصي وتاريخ كهلان بن أبي لؤي الأوربي وتاريخ العقباني في دولة بني زيان**" (بالحميسي، 1981، صفحة 161).

كذلك تَحدّث أبو القاسم الزياني في كتاب الرحلة أخبار تلمسان ومن ملكها ودخول العثمانيين إليها، على غرار الحرب بين بني مرين وبني عبد الواد علي تلمسان، قائلا:"...**واستمر الحال على ذلك** (أي الحرب بينهما) **إلى أن انقرض ملك بني مرين وبني عبد الواد، وملكها الترك من يد عبد الله الزياني، آخرهم عام اثنين وخمسين وتسعمائة، دخلها حسن بن خير الدين باشا...** " (الزياني أ.، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، 1991، صفحة 148).

نَلمس في الترجمانة الكبرى، وصفا لمعالم أثرية ومظاهر عمرانية مثل وصفه لمدينة تلمسان قائلا فيها: " **هذه تلمسان قاعدة من قواعد المغرب الأوسط، قديمة أزلية البناء أسست قبل الإسلام بكثير من الأعوام** " (الزياني أ.، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، 1991، صفحة 145).

أخبرنا الزياني بما كان بتلمسان آنذاك من كتب نادرة مثل: كتب ابن مرزوق وأبي حمو موسى الزياني...، التي وجد فيها المؤرخ ضالته.

وخصّص الزياني لتاريخ تلمسان صفحات غطّت الحديث عن بقيّة المدن الجزائريّة، ويظهر من سرده للحوادث أنّه اعتمد على ابن خلدون بصفة خاصّة، وعرضها عرضا محكمًا، ممّا جعل الأب "BARGES" ينقل هذا الفصل كاملاً إلى الفرنسيّة (بالحميسي، 1981، صفحة 36)، وحكى عن المدن مابين تلمسان والجزائر كقلعة بني راشد، أرشقون، مستغانم، تاهرت، تنس، شرشال، مازونة...

إنّ انطباعات الرّحالة الزياني تُعطينا صورة واضحة عن حالة تلمسان في العهد العثماني، خُصوصا الحياة الثقافية بها.

كلامه عن أهل تلمسان يؤكد أنهم كانوا محبين للعلم والعلماء خاصة عندما وظّف كلمة " انهال " وتعني الكثرة أي أنّ طلبة تلمسان أقبلوا إليه بكثرة ، ينهلون من علمه ، ومعرفته ، كيف لا وتلمسان من أهم الحواضر العلمية في بلاد المغرب الإسلامي ككل، حيث أخبرنا الزياني بما كان بتلمسان آنذاك من كتب نادرة مثل :كتب ابن مرزوق وأبي حمو موسى الزياني (حاجيات، 1974، الصفحة54) التي وجد فيها الرحالة ضالته لاسيما وأنه أقام بتلمسان

سنة ونصف، نزل بجوار أبي مدين بالعباد (الزياني أ.، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، 1991، الصفحات 142–147) .وخصّص الزياني لتاريخ تلمسان صفحات غطّت الحديث عن بقية المدن الجزائرية، ويظهر من سرده للحوادث أنّه اعتمد على ابن خلدون بصفة خاصة و عرضها عرضا محكما، مما جعل الأب " **BARGES**"ينقل هذا الفصل كاملا الى الفرنسية (بالحميسي، 1981، الصفحة 36).

أهم المصنفات التاريخية التي وجدها الزياني بتلمسان:

لمّا التقى الزياني بعلماء تلمسان وفقهائها وبخطيب مسجد أبي مدين بالعباد قال عن هذا الالتقاء : (... وأتحفونا بما عندهم من كتب الأخبار ، وتواريخ من كان ببلدهم من الأحبار ، فأتحفني الفقيه الأديب خطيب مسجد أبي مدين بالعباد ، بتاريخ الإمام المؤرخ أحمد بن يحي البلاذري في ستة أسفار) (الزياني أ.، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، 1991، الصفحة 144)، ووجد الزياني بتلمسان الكثير من الكتب التاريخية النادرة منها : تاريخ سليمان بن إسحاق المطماطي كما سبق الحديث عنه ، تاريخ هاني بن يصدور القوصي، تاريخ كهلان بن أبي لؤي الأوروبي في أنساب البربر وأيامهم في الجاهلية والإسلام، بالإضافة إلى كتب العقباني وابن مرزوق وكذلك كتاب واسطة السلوك للسلطان أبي حمو موسى الزياني (بالحميسي، 1981، الصفحة 36)، ولا شك أن طلبة العلم التلمسانيين وغيرهم قد استفادوا من وجود الزياني في تلمسان فأخذوا عنه مختلف العلوم لأن الزياني قد تفنن في الكثير من العلوم من فقه وتفسير وأدب بالإضافة إلى التاريخ والسير والتراجم والرحلة .

يَجدر بنا أن نقول بأنّه كانت للزياني نيّة الاستقرار في تلمسان إلاّ أنّه عدل عنها بقوله «**ثم بعد إقامتنا بها سنة ونصفها، خرجنا منها إلى مدينة الجزائر فرارا من الوباء الذي حل بها وكان عاما في العمائر التي بينها وبين الجزائر، فما زلنا منزلا إلا وجدنا أهله يدفنون موتاهم**" (بالحميسي، 1981، صفحة 168)، وبعد تاريخ حافل وافته المنية في نوفمبر 1833 (سعيدوني، 1999، صفحة 477).

8. خاتمـــة:

يُعتبر مصدري الرّحلة لكتاب "وصف إفريقيا " لمؤلفه الحسن الوزان، وكتاب "الترجمانة الكبرى " لمؤلفه أبو القاسم الزياني، من أهم المصادر التاريخية، فإنّ الرَّحالة الحسن الوزان وأبو القاسم الزياني السالف ذكرهما، حاولا في كتابيهما إعطاء صورة واضحة لرحالة القرن السادس والتاسع عشر، عن أهم المشاهد التي حاولا تصويرها، كما حوى الكتابان بين دفتيه طائفة هامة من المعلومات التاريخية وبعض النبذ الشعرية والأدبية، وذكر لأهم العروض عن بعض المناظرات والمباحثات التي كانت بينها وبين علماء القطر الجزائري عموما وعلماء تلمسان خصوصا، ويعدان وثيقة تاريخية هامة، تصور مجتمع التلمساني خلال القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر، وتعطي

التصور العام الذي كان عليه رحالة تلك الفترة. ولذا لا يمكننا الاستغناء عنهما فهما بذلك جزء من ذاكرتنا التاريخية.

لقد كانت رحلتا الوزان وأبو القاسم الزياني، نموذجا للمصادر المحليّة القليلة التي أرّخت لتلمسان خلال العهد العثماني بالرغم من عدم إطناب صاحبيها في وصف هذه الحاضرة، وبالتالي فالرجوع لها مهم في هذه الفترة التي عرفت العديد من الكتابات الأوروبية التي جانبت الحقيقة في العديد من المواضيع، وعلى الرغم من اختلاف النظم السياسية بين المغرب والجزائر، كان ذلك رحمة على العلماء عموما، والرحالة خصوصا، كما أشار إليها الدكتور "أبو القاسم سعد الله "في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي " حيث ذكر أن بقدر ما كان سلاطين المغرب يقربون علماء الجزائر، ويعطونهم مثاقيل الذهب ويوفرون لهم الكساء والاحترام بقدر ما كان باشوات الجزائر، يستقبلون بعض علماء المغرب، ويقدمون لهم المال والمناصب .

9. قائمة المراجع:

ابن منظور، م. م. (1990). لسان العرب. بيروت: دار البصائر.

التجديتي، ن. (2009). الرحلة إلى شرق المتوسط من خلال الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني. سيميائيات.

الحجوي، م. (1935). حياة الوزان الفاسي وآثاره. المغرب: المطبعة الاقتصادية.

الزياني، أ. (1991). الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا. الرباط: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع.

الزياني، أ. (2003). جمهرة التيجان وفهرسة الياقوت والؤلؤ والمرجان في ذكر الملوك وأشياخ السلطان المولى سليمان. بيروت: دار الكتب العلمية.

الزياني، أ. (2008). نحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب. الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

السملالي، ا. (1993). الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام. الرباط: المطبعة الملكية.

الشيخ، أ. (2000). معجم مشاهير المغاربة. الجزائر: منشورات دحلب.

الغزالي، أ. (1998). إحياء علوم الدين، إعداد ودراسة . القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر.

الموسوعة العربية.(.s.d) .

الناصري، أ. (1956). الاستقصاء لأخبار دور المغرب الأقصى. الدار البيضاء: دار الكتاب.

النفاتي، ع. (2020). دور الجغرافيين المغاربة في تصحيح معارف أوروبا حول إفريقياّ: كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان الفاسي أنموذجا. المدارات التاريخية، 2(4).

الوافي، ن. ع. (1999). الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع .(Vol. 2) القاهرة: دار النشر للجامعات.

الواليش، ف. (1994). الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر. الجزائر.

الوزان، ح. (1983). وصف إفريقيا. لبنان: دار الغرب الإسلامي.

بروفنصال، ل. (1977). مؤرخو الشرفاء. الرباط: دار المغرب.

بلحميسي، م. (1981). الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

بلعمري، ف. (2017). الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة. قسنطينة.

بن أحمد أبو عبد الله، م. (2009). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. الجزائر: منشورات السهل.

بن خروف، ع. (2008). العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري / السادس ميلادي. الجزائر: دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع.

بن عتو، ب .(s.d.) .أضواء حول مدينة تلمسان خلال العهد العثماني. الحوار المتوسطي.

بن عثمان المكناسي، م. (1965). الإكسير في فكاك الأسير. الرباط.

سعيدوني، ن. (1999). من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

شقرون، ع. (2016). نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أبي العباس أحمد –دراسة وتحقيق. تلمسان.

عبد الرزاق الموافي، ع. (1995). الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري. مصر: دار النشر للجامعات المصرية.

كراتشكوفسكي، أ. ي. (1963). تاريخ الأدب الجغرافي العربي. (ص. هاشم (.Trad ,القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

كريم، ع. (2006). المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية. الرباط: منشورات جمعية المؤرخين المغاربة.

مجهول. (1985). الاستبصار في عجائب الأمصار. الدار البيضاء: دار النشر المغربية.

محمد يوسف نواب، ع. (1996). الرحلات المغربية والأندلسية، دراسة تحليلية مقارنة. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

محمد، د. (1959). تاريخ تيطوان. المغرب: نشر معهد مولاي رشيد.

مودن، ع. (1997). أدبية الرحلة (Vol. 1). المغرب: دار الثقافة للنشر والتوزيع.